محمد بن سليمان الراجحي، الروس وعلاقتهم بالمسلمين في العصر العباسي، الرياض، ٢٠٠١، ٢٢٢ صفحة. **عرض د. طارق منصور**

يقع الكتاب الذي نحن بصدده في نحو مائتين واثنتين وعشرين صفحة من القطع المتوسط، ويبدأ بمقدمة تمهيدية لأهمية الموضوع. وينقسم هذا الكتاب إلى خمسة فصول، يتحدث المؤلف في الفصل الأول منها، الذي يحمل عنوان"المسلمون والروس حتى مطلع القرن الرابع الهجري"، عن العلاقات الباكرة بين الروس منذ ظهورهم في القرن التاسع الميلادي، وبين المسلمين؛ ثم ينتقل للحديث عن غزواتهم الباكرة لأراضي المسلمين في منطقة القوقاز، وموقف مسلمي الخزر منها.

وفي الفصل الثاني الذي يحمل عنوان "غزو الروس مدينة برذعة"، يتحدث عن تفاصيل الهجوم الروسي على هذه المدينة الثرية، وجهود المسلمين لمقاومة الروس وإجلائهم عنها.

وفي الفصل الثالث الذي يحمل عنوان "دراسة تحليلية للغزوات الروسية"، يتحدث المؤلف عن دوافع الروس من هذه الغزوات للبلاد الإسلامية في القوقاز، موضحاً أسباب تركز هذه الغزوات على منطقة القوقاز، وعوامل ضعف المواجهة الإسلامية للغزوات الروسية.

وفي الفصل الرابع الذي يحمل عنوان "العلاقات السلمية بين المسلمين والروس"، يتحدث المؤلف عن العلاقات الإسلامية الروسية بعيد عام ٩٤٣م/٣٣٢هـ، وعلاقة الروس بالخوارزميين ومسلمي القوقاز.

أما الفصل الأخير الذي يحمل عنوان "العلاقات الروسية–البيزنطية وآثارها على الدولة الإسلامية". ثم يختم الباحث كتابه بخاتمة وبعض الملاحق.

والآن نبدأ بأهمية الموضوع الذي تناوله المؤلف، حيث تكمن ببساطة شديدة في محاولة الروس التوسع خارج نطاق منطقة السهوب، الخالية من مظاهر المدنية، نحو المنطقة الشرقية لأنهار الدنيبر والدنيستر بل ونهر الفولجا أيضا، ذات الكيانات الحضارية. لكن، وعلى الرغم من سهولة الطرق المؤدية إلى هذه المناطق بالنسبة للروس، إلا أنهم اصطدموا بقوة خاقان الخزر، اليهودي الديانة، الذي كانت له مملكة منتظمة الجيوش،

يحارب فيها المسلمون والمسيحيون تحت رايته. ومن ثم كان عليهم مهادنته والاتفاق معه، حتى يعينهم على الطريق إلى ما وراء مملكة الخزر، أي إلى أراضي المسلمين الواقعة في القوقاز، الثرية بكل أنواع الزراعات والبساتينوالتجارات بل والبترول أيضاً. لذلك يشنون أولى هجماتهم على هذه المنطقة في الفترة من ٨٦٤-٨٨٤م/٢٥٠-٢٧١هـ، وكانت وجهتها بلدة أبسكون الواقعة جنوب شرق بحر الخزر؛[١] وقد هزموا هزيمة ثقيلة على أيدي قوات حسن بن زيد، حاكم طبرستان.[٢] ومما يلفت النظر هنا، أن الروس بعد ذلك، بعدما عرفوا الطريق إلى بلاد القوقاز الإسلامية، غضوا الطرف عن خاقان الخزر، وبدأوا في شن الغزوات على مسلمي القوقاز دون الاستعانة به، وهذا ما يجعله يتحد مع مسلمي الخزر ضدهم ويجهز على فلول الروس الهاربة أمام مسلمي القوقاز إبان غزوة الروس لأراضيهم، خاصة مدينة أبسكون، عام ٩١٠م/٢٩٨هـ.[٣] لهذا سنجد أن الروس ، وقد أدركوا مستوى قوتهم الحقيقي، يستأذنون خاقان الروس في العبور عبر أراضيه لغزو مسلمي القوقاز في الغزوة التالية لأراضيهم عام ٩١٢-٩١٣م/٣٠٠هـ، وهي الغزوة التي يقدم المسعودي تفاصيلها.[٤]

جدير بالذكر أن خاقان الخزر تحالف مع الروس في هذا الهجوم ضد مسلمي القوقاز، وذلك لأن الروس اتفقوا معه على دفع نصف الغنائم له، بالإضافة إلى تفكيك القدرة العسكرية لإحدى الكيانات السياسية الغنية بجوار مملكته، أعني قوة مسلمي القوقاز، وهي القوة السياسية التي قد تتحد يوما ما مع مسلمي الخزر ضد الخاقان اليهودي هو وحاشيته، الذين كانوا أقلية في مملكة الخزر.

---

[١] Ibn Sfandiyar, *Tarikhe Tabaristan,* Eng. trans. E. G. Brown, New York, 1905, p. 198; Chadwik, W., *The Beginning of the Russian History*, Cambridge, 1966, pp. 60-61.

[٢] طارق منصور، الروس والمجتمع الدولي ٩٤٥-١٠٥٤م، القاهرة، ٢٠٠١، ص ١٤٢.

[٣] Ibn Sfandiyar, *Tarikhe Tabaristan,* p. 198.

انظر أيضا، طارق منصور، الروس، ص ١٤٢-١٤٤.

[٤] المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج١، القاهرة، ١٩٢٧، ص ١١٤-١١٦؛ طارق منصور، الروس، ص ١٤٤-١٥١؛ ليلى عبد الجواد، تاريخ الروس من خلال المصادر العربية، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٢٨-٣١.

ونأتي الآن إلى الحدث الأهم في موضوع الكتاب، وهو هجوم الروس على مدينة برذعة عام ٩٤٣-٩٤٤م/٣٣٢هـ،[٥] حيث حلت المصيبة على مسلمي برذعة وانتشر خبرها بين الأقطار، وقد تمكن المرزبان من حشد القوات الإسلامية التي استطاعت هزيمة الروس في نهاية المطاف، وأجبرتهم على الانسحاب، بغنائمهم وسباياهم، عبر نهر الكر. تجدر الإشارة إلى أن الروس هدفوا من هذه الإغارة إلى إخضاع منطقة القوقاز لنفوذهم السياسي، ويتضح هذا من قول ابن مسكويه "لا منازعة بيننا وبينكم في الدين، وإنما نطلب الملك وعلينا أن نحسن السيرة وعليكم حسن الطاعة".[٦] وجدير بالذكر أن الروس في هذه الإغارة لم يستعينوا بخاقان الخزر، بسبب أنهم اتخذوا طريقا مغايرا غير الطريق الذي يمر ببلاد الخزر.[٧]

تجدر الإشارة إلى نجاح مؤلف الكتاب في استعراض الحملات الحربية الروسية على القوقاز، مع بيان أسبابها. ومما يحسب له إجماله للأسباب التي أدت بالروس للهجوم على مسلمي القوقاز. ومع هذا لا أتفق مع المؤلف في رؤيته أن أهداف الروس كانت السلب والنهب والحصول على الغنائم فقط (ص ٩٥). ويبدو لي أنه ينبغي أن نهتم برواية ابن مسكويه عن هدف الروس من إغارتهم على بلاد القوقاز عام ٩٤٣-٩٤٤م، والتي لم

---

[٥] عن تفاصيل هذه الإغارة انظر، ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، تحقيق/ ف. آمدروز، القاهرة، ١٩١٥، ص ٦٢-٦٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٦، تحقيق/ نخبة من العلماء، بيروت، ١٩٨٣، ص ٢٩٧-٢٩٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١، القاهرة، د.ت.، ص ٢٠٨؛ ابن العبري، تاريخ الزمان، ترجمة/اسحق رميلة، بيروت،١٩٩١، ص ٥٨؛ المروزي، أبواب في الصين والترك والهند، منتخبة من كتاب طبائع الحيوان، تحقيق/ ف. مينورسكي، لندن، ١٩٤٢، ص ٢٣؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ليدن، ١٩٦٧، ص ٣٣٩؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، القاهرة، ١٩٠٥، ص ٣٠١. انظر أيضا، دنلوب، د.م.، تاريخ يهود الخزر، ترجمة/ سهيل زكار، دمشق، ١٩٩٠، ص ٣١٨-٣١٩؛ طارق منصور، الروس، ص ١٥١-١٥٨؛ ليلى عبد الجواد، تاريخ الروس، ص ٣١-٣٥؛ Franklin, S., and Shepard, J., *The Emergence of Rus' 750-1200*, London, New York, 1996, p. 147; Vernadsky, G., " The Rus' in Crimea and the Russo-Byzantine Treaty of 945", *Byzantina-Meta Byzantina,* 1(1945), p. 256; Chadwik, *Russian History*, pp. 52-58.

[٦] ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص ٦٣.

[٧] طارق منصور، الروس، ص ١٥٦-١٥٧.

تكن الأولى. ويلاحظ المتتبع لإغارات الروس على القوقاز أنهم بدءوا بجس نبض المسلمين في الإغارة الأولى، ثم تحالفوا مع خاقان الخزر، في المرة الثانية ليتقوا به، ثم نراهم بعد ذلك، وقد وعوا الطريق جيدا وتمكنوا من قياس قوة المسلمين الحربية، ينفردون بالإغارة على القوقاز، لا بهدف السلب والنهب بل كما قال ابن مسكويه، بهدف السيادة والحكم، مع ملاحظة ثراء القوقاز الذي أفاض الجغرافيون المسلمون في الحديث عنه. إن هذا التدرج في الفكر السياسي للروس آنذاك جاء طبيعيا، لاسيما بعد أن أغاروا على بيزنطة، أقوى دول العصور الوسطى في القرن العاشر الميلادي، عدة مرات نجحوا في هزيمة قواتها تارة وأخفقوا تارة أخرى.[٨]

ويحسب للمؤلف أنه اهتم ببيان أسباب ضعف الدولة الإسلامية، مما ساعد الروس على التغلغل في القوقاز. كذلك نجح المؤلف في بيان تفاصيل أسباب حملتي الروس على القوقاز عامي ٩٨٧م، ٩٨٩م ، واللتان كانتا بطلب من حكام باب الأبواب، على أثر خلافات بين أفراد البيت الحاكم. (ص ١٣٧-١٤٤)

ومع هذا، يؤخذ على المؤلف أنه لم يذكر تفاصيل هجوم الأمير الروسي سفياتوسلاف على بلغار الفولجا عام ٩٦٥م، وهم مسلمون أيضاً، اعتنقوا الإسلام زمن الخليفة العباسي المقتدر ٩٠٧-٩٣٢م/٢٦٥-٣٢٠هـ،[٩] الذي أرسل لهم وزيره أحمد بن فضلان.[١٠] وقد كانت هناك مناوشات بين الروس وبين بلغار الفولجا، وهو الأمر الذي صرف أنظار الروس عن هذه المنطقة حتى عام ٩٦٥م؛ ويؤكد هذا قول مؤلف "حدود العالم" أن البلغار كانوا في قتال دائم مع الروس،غَلِبون تارة ويُ غلبون تارة أخرى.[١١] وقد ذكر كل من ابن حوقل والإدريسي حملة الروس على بلغار الفولجا والآلان والكاسوغيين

---

[٨] انظر، طارق منصور، الروس، ص ١-١٣٦، ٢٢٧-٢٣٦.

[٩] المسعودي، مروج الذهب، ج ١، ص ١١٣. Gerard, C., *Les Bulgars de la Volga et les Slaves du Danube*, Paris, 1939, p. 56.

[١٠] انظر أحمد بن فضلان، رسالة أحمد بن فضلان إلى بلاد الترك و، ص ٩٧-١٠٠، ١٤٣-١٧٢؛ أحمد فؤاد سيد، الإسلام والثقافة العربية في بلاد ما وراء النهر الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٦، ص ١٢٩؛ ١٣٢-١٣٣؛ Gerard, *Les Bulgars*, pp. 55-60.

[١١] *Hudud al 'Alam,* ed. and Eng. trans. V. Minorsky, Oxford, 1937, p. 160.

والخزر عام ٩٦٥م.[١٢] ويشير المؤرخان الإنجليزيان جوناثان شبرد وسيمون فرانكلين إلى أن الهدف من هذه الحملة كان تأمين الحد الشرقي لبلاد الروس وفتح طريق أمامهم إلى بلاد السامانيين وفضتهم.[١٣] كذلك شن فلاديمير هجوما عام ٩٨٥م على بلغار الفولجا، ولم يفلح في إحراز نصر حاسم عليهم، فقد لجأ إلى عقد اتفاق سلام معهم.[١٤] كذلك أغفل المؤلف الحديث عن تفاصيل هجوم الروس على القوقاز، خاصة بلاد شروان، في عامي ١٠٣٠م/٤٢١هـ، ١٠٣١م/٤٢٢هـ.[١٥]

ويؤخذ على المؤلف أيضا قيامه بمسح تاريخي للعلاقات الروسية البيزنطية بدءا من هجوم الروس على القسطنطينية عام ٨٦٠م/٢٤٦هـ وحتى عام ١٠٤١م/٤٣٣هـ في بضع صفحات، محاولا إيضاح آثارها على الدولة الإسلامية، حيث ركز في هذا الفصل على دور الحرس الفارانجي في حروب البيزنطيين مع أعدائهم. ويستخدم المؤلف هنا دائما لفظة "الروس" أثناء إشارته إلى الحرس الفارانجي، مما يحيل الصفة على الشعب الروسي، وكان عليه أن يستخدم مصطلح "المرتزقة الروس" أو "الفارانجيون". كما أن هذا الفصل خلا من المصادر البيزنطية التي تسهب الحديث عن علاقات بيزنطة مع الروس،[١٦] باستثناء اعتماده على بعض المصادر العربية مثل يحيى الأنطاكي وغيره؛ بل إن الكتاب خلا من أسماء المؤرخين الحديثين الذين أبلوا في مجال الدراسات الروسية–البيزنطية أمثال D. Obolnsky, J. Shepard, S. Franklin, T. Noonan, H. Ahrweilr, I. Sorlin, Z. Udal'cova… وغيرهم ممن كانت كتاباتهم ستثري مؤلَّفه. ومع هذا يحسب للمؤلف إقدامه على تناول هذا الموضوع الشائك.

---

[١٢] ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٩٣–٣٩٤؛ الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، القاهرة، د.ت.، ص ٩٢٠.

[١٣] Franklin and Shepard, *Rus',* p. 145.

[١٤] *The Russian primary Chronicle, Laurantian Text,* Eng. trans. and ed. S. H. Cross and O. P. Sherbawitz-Wetzor, Cambridge, Mass., 1953, pp. 96-97; Franklin and Shepard, *Rus'*, pp. 156-157;
طارق منصور، الروس، ص ٢٢٤–٢٢٥.

[١٥] انظر، طارق منصور، الروس، ص ١٥٩–١٦٢.

[١٦] انظر، طارق منصور، الروس، ص ١–١٣٦، ٢٢٧–٢٣٦.